

قراءة في مناهج الصوفية وغيرهم في التربية والسلوك

مداح عبد القادر

أستاذ تاريخ

جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة

كل ثورة قام بها الإنسان ورمى فيها بثقله ، إلتذ بانتصاره على خصمه فيها ، وما ينفك أن يقف ليُقيّم ما قام به ، وما حققه من أهداف . إلا أن الغاية تبقى بعيدة المنال، لأن من قام بالثورة يذكر محاسنها فقط، ويتجاهل مساوئها. وتقييمه لها يخضع إلى حد بعيد لمعايير يغلب فيها الهوى على المنطق والصواب. وسيظل يمجّد عمله ويتحسّب ويباهى به. فالنهضة الأوربية التي انطلقت من إيطاليا كانت ثورة روحية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أعادوا فيها إحياء التراث وبعثه من جديد، حيث انتهوا إلى ثورة صناعية أفادت منها البشرية جمعاء. أردت أن أقارن بين حالة أوروبا اليوم وما حققه الأوروبيون عندما تحرروا من جمود الماضي والقطيعة معه منذ القرن الخامس عشر . حيث أدركوا غاية نهضتهم في القرن التاسع عشر. الذي بدأت فيه نهضتنا (النهضة العربية) وقيل أنها إصلاحية . هدفها إخراج العربي من التقليد والتخلف ، ويا ليتها بقيت نهضة طي الكتب فقط ، لكنها انتهت إلى ثورات عارمة بلون أحمر، وسماها أصحابها بثورات الربيع العربي_والتي غلب فيها اللون الأحمر على اللون الأبيض_شملت أغلب أجزاء العالم العربي أعادتهم من زمن الحاضر من ناحية التطور التكنولوجي إلى زمن القرون الوسطى ولا داعي لذكر المساوئ ، أما الحسنات لا تكاد تذكر. فهل كنا في حاجة إلى مثل هذه الثورات ؟ .

بل نحن في حاجة إلى ثورة روحية ولا نجدها إلا في ثنايا التصوف. ولو بدأنا بالثورة الروحية لانتهينا إلى أفضل مما انتهى إليه غيرنا فهم طبقوا ما كان في عصورنا الوسطى (العصر الذهبي) ونحن طبقنا بحزم ما مروا به في عصورهم الوسطى من صراعات طبقية وحروب على المستوى السياسي وجهل وتخلف على المستوى الثقافي والحضاري أدت إلى ما نحن عليه الآن. فالمجتمعات العربية حاولت من خلال النهضة العربية أن تشكل أنسانا عربيا تشكيلا جديدا ، يكون النواة التي تؤسس للعلوم والصناعات المادية ، وللقيم الروحية والأخلاقية التي ترفع من قدره وتعلي من شأن إنسانيته . وبالتالي تفك أسرهم من شهوات

النفس الحيوانية و ضرورها ، غير أنها ما فتئت تهدر هذه النواة ، وتنشر القيم المادية المستوردة بدعائهم من طرائق للعيش وأنماط ثقافية غريبة ، غلب عليها التقليد والسطحية ، وافتقدت للعمق والإبداع ، فتراجعت الروحانية الأخلاقية أمام المادية الفردية ، وليس للمصلحة الجماعية العامة مكان . وأخذ الجهل نصيبه يغطيه العلم الزائف ، والتطور الوهمي فطال كل المناحي الحياتية للإنسان حتى اللغة العربية كان لها نصيب من الضرر ، والخطب الأعظم هي النفس وأخلاقها وسلوكياتها التي غلبت عليها المادية ومن أهم مظاهرها فقدان الأمن والطمأنينة ، فساد الخوف وتزعزعت الثقة بين أفراد المجتمعات العربية الإسلامية وترجمتها الليالي والأيام ، بل والشهور الدامية التي أتت على الحرث والنسل ولإصلاح ما فسد علينا بالعودة إلى ما تركه العلماء من تأليف حول التربية والسلوك ولا سيما التربية الصوفية الإسلامية والسلوك ، ولعلها السبيل الوحيد لإعادة بناء المجتمع المتماسك المتراس بأبعاد روحية ومادية معا ، وبما أن الموضوع يدور في فلك التربية الصوفية ، وغالبا ما توجه لأصحابها الاتهامات من خلال عزلتهم وانطوائهم على النفس . أنهم لا يقفون المواقف الايجابية اتجاه الواقع ، والركون إلى كل ما هو سلبي الذي يتجسد في رفض الذات والآخر معا طلبا للكسل والخمول الباعث على الأمل والمثبط للعمل . فيقع اللوم على المتصوفة في تقصيرهم وعجزهم عن القيام بدورهم في المجتمع ، واتهامهم بالزيف والتحريف لكل ما يمت إلى الإنسان المسلم بصلة . لذلك ارتأيت أن تكون الورقة حول " قراءة مناهج الصوفية وغيرهم في التربية والسلوك " لنرى ما علاقتها بالمجتمع ؟ وكيف عالج كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم مسألة التربية الصوفية ؟ و كذلك معالجتهم للنفس و إصلاحها ليصلح المجتمع وما هي الطرق التي اتبعوها في ذلك ؟ والغايات المرجوة من أهداف التربية النفسية الصوفية ؟ وهل كان لها اثر ايجابي غفلنا عنه أو أريد لنا أن نغفل عنه حتى أصبحنا ما نحن عليه في ظل التغريب المتزايد والذي شكل بحق أزمة في التربية والأخلاق في العالم الإسلامي عوما والوطن العربي خصوصا والجزائر على وجه التخصيص .

رسالة القدس في محاسبة النفس :

كتاب: " رسالة القدس في محاسبة النفس"⁽¹⁾ لمحي الدين بن عربي (560هـ - 638هـ)⁽²⁾ اختصره وقدم له وعلق عليه الدكتور أحمد الرفاعي شريف. يحمل بين دفتيه منهج فريد في التربية والسلوك لو عملنا على نشره لأفدنا منه أعظم فائدة. من منطلق أن التصوف قاعدة فعالة لقدرته على استثمار التجربة الدينية على نحو منظم ، وهو ينشأ كعلم الكلام في مرحلة راقية من مراحل التطور الديني⁽³⁾، والشيخ الأكبر سلك أحد الاتجاهات الصوفية الكبرى ، وهو التصوف السني⁽⁴⁾ ، الذي عرف تعريفات بلغت الألف و أكثر ، وكلها تعني بالنفس وسلوكها مع خالقها ، وعلاقتها به من جهة ، وتصرفها في حياتها الاجتماعية وعلاقتها بغيرها من الناس ، كما قال محمد بن علي القصاب ، التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت في زمن

كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام⁽⁵⁾ وهو يعني أن التصوف مبني على القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة :وقد جعله ابن عربي منهاجا أراد من خلاله توجيه رسالة روحية في التربية الصوفية والسلوك وهو في مقام شيخ تربية بكل ما تدل عليه الكلمة من معنا من منطلق أن التصوف نزعة زهدية تصوفية ، وما فيها من تأمل ، وسعي لإدراك التجربة الدينية محكوم مضبوط بقوة القبول للوحدانية المنزهة ، وبمبدأ الواجبات في القرآن⁽⁶⁾ ، وهو عند ابن عربي عقيدة كما بينها في رسالته ، وإن كان للتصوف ثلاثة اتجاهات كبرى وهو نفسه له أول ، ووسط ، وآخر⁽⁷⁾ فهناك شيخ تربية ، وشيخ ترقية ، وشيخ تعليم ، فلا بد أن يكون لأهله ثلاثة أصناف من المريدين ، مريد طالب ، ومتوسط سالك، ومنتهى واصل، والشيخ محيي الدين، وجه رسالته للصنف الثالث ، يريد تربية الصنف الأول ، وهذا دأب العلماء، ومشايخ الصوفية في التربية عن طريق النصح لإخوانهم ، حيث يريدون تربية غير هؤلاء المقصودين، وقد كتب إبراهيم بن أدهم إلى أخ له " بسم الله الرحمن الرحيم "أما بعد : فأني أوصيك بتقوى الله من لا تحل معصيته ولا يرجى غيره ، ولا يدرك الغنى إلا به ، فإنه من استغنى عز وشبع ، وروى ، وانتقل عندما أبصر قلبه ، كما أبصرت عيناه من زهرة الدنيا ، فتركها و جانب شبهها . فارض بالحلال الصافي منها، أي ما لا بد منه، من كسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى به عورته، أغلظ ما يجده، وأخشنه، والسلام. ورسالة ابن عربي جاءت من موقع تجربة ، وهذه التجارب تبدو في الحالات المرضية التي تحل بالمجتمع ، كالأضطرابات ، و الثورات والفتن ، و الانقلابات ، وهذا لم يغب عن ابن عربي وهذا ما جعله يشخص الحالة الاجتماعية ، وجعل لها مقارنة⁽⁸⁾ في ما يصيب النفس من أمراض باطنية علاجها المحاسبة المرحلية ، التي تقتضي التدرج مع المريد الطالب إلى المتوسط السالك وغالبا ما تنتهي إلى المنتهى الواصل ، والمعروف عن الرسائل أنها تحتوي على مسائل يجيب عنها السائل على هذا الشكل ، ولكنه وضع منهاجا لمحاسبتها ، بحيث يمكن لكل إنسان ، وبالخصوص المسلم أن يحاسب نفسه وفقه . لأن حديث النفس لا ينقطع ورخصها لا تنتهي حتى توقعك. والذي يقرأ هذه الرسالة يكتشف أمورا غفل عنها علماء النفس و رواد النظريات السيكلوجية في العصر الحديث. فكان منهاج ابن عربي في التربية السلوكية للنفس في حوارها ولم يكن على شكل خطبة، أو محاضرة أو درس، ولكن على شكل رسالة. ومن سمة الرسالة العود إليها للذكرى، وخاصة إن اشتملت على النصيحة و الأخص من ذلك، النصيحة في الله التي لا يراد منها الجزاء و الشكر. وهو في منهاجه ناصحا لنفسه راجيا بها غيره وبيّن لنا الشيخ المنافذ إلى النفس حتى تقبل النصيحة بل وتطبق ما جاءت به ويبدأ بإدانة نفسه المقصرة وفي المقابل يعدد مناقب وخصال المراد نصحه وفي ذات الوقت يشير إلى الزمان وما يحدث فيه من مغريات و شهوات و معاصي ومنكرات و آفات أصبحت أدوات تعين الشيطان و يتقوى بها .والنصيحة من مقتضيات الدين وواجبات المسلم كما جاء عن عطاء بن يزيد الليثي قال : سمعت تميم الداري يقول : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الدين نصيحة " ثلاث مرات ، قالوا يا رسول الله لمن ، قال لله وكتابه وأئمة المسلمين عامتهم . ومن طريق آخر ، عن زياد بن علاقة الثعلبي قال : سمعت جرير بن عبد الله يقول : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال سفيان وزاد مسعود عن ابن مسعر عن زياد أو عن آخر إن جريرا قال وأنا لكم ناصح . وقالها هذا المسلم منفردا و وردت جماعة فعن قيس عن جرير بن عبد الله قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم⁽⁹⁾ .

يشخص ابن عربي ظواهر اجتماعية وطبقات من حكام جور وعلماء سوء⁽¹⁰⁾ ، وصوفية صوف⁽¹¹⁾ ويستشهد بذلك بسادة الطائفة الصوفية وهو يصف زمنهم بتلك الصفات الشنيعة ، ثم يعود إلى وصف أهل زمانه فيقول ((... وأما أهل زمانك فوالله لو اطلعت عليهم لرأيت إن نظرت إلى وجوههم عيون جامدة متحركة غير هامة ، وإن نظرت إلى نفوسهم رأيت نفوسا سامدة⁽¹²⁾ ، وإن نظرت إلى قلوبهم رأيت قلوبا من العمارة العلوية والقدسية خالية على عروشها خاوية آجاماً لأسود ضارية ، ومرابض لذئاب عاوية ، نسأل الله سبحانه وتعالى عند رؤيتهم العافية ..)) وهذا الوصف لا يتركه بل يأتي بعكس ما هو كائن وليس كالذي تقع عيونه على المساوي ولا يرى أي محاسن. فيذكر صفات الصفوة من خلق الله ويستشهد بقول ذا النون المصري⁽¹³⁾ حيث قال: إن لله لصفوة من خلقه وإن لله لخيرة ، قيل له يا أبا الفيض ما علامتهم قال : إن خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة أوجب سقوط المنزلة ، ثم قال:

مَنَعَ الْقُرْآنُ بَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ❖ ❖ مُقْلَ الْعُيُونِ بِلَيَالِهَا أَنْ يَهْجَعُوا
فَهَمُّوا عَنِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ كَلَامَهُ ❖ ❖ فَهَمًّا تُذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

هذا المنهج عند ابن عربي فريد من نوعه ، يعتمد على المقارنة ومقارنة الحجة بالحجة ، حيث يبين طرق النقد التي تعتمد على الهوى ولا تتصف بالعمق ويبين أن الغرور ينتج عن استعمال مقاييس وموازين دنيوية يمكنه من خلالها وضع نفسه في المقام الذي يرغب فيه جميع الخلق ، وهذا منهج قل ما يلتفت إليه . لأن الألقاب تنسيهم أنفسهم وخاصة ما تعلق منها بالحق والواجب والمصلحة العامة. غير أن ابن عربي في منهجه يحاصر النفس من كل المداخل حتى تقر بالواقع، وتعترف بصدق الأحوال. لأن النفس من شأنها العدول والميل إلى المراوغة. وفي نفس السياق نجد الشيخ ينفرد بمنهجه في التربية الصوفية حيث لا يتخذ سبل الوعظ مثل ما نراه اليوم ، فبدل البحث عن من تعظه ، تنتظر منه أن يأتيك ولا تنزل إليه ولذلك فالفائدة عقيمة فيبدأ بالمناصحة لكن ، معاييب النفس كثيرة وكيف تنصحها . لأنها تداهنك مثلما يداهنك الصديق، يقول ابن عربي : لما لزمنا البحث والتحقيق لم يتركنا لي في الأنام صديق . ذلك أن الدعاة اليوم يشبهون الملوك في الملبس والمأكل والمركب، وفي الدعوة بأهل التقوى والتصوف. والتربية عند

ابن عربي عملية تواكب كل تطور وليس نظرية كما يراها علماء الغرب وان كانت ناتجة عن دراسات نمطية بطابع مادي.

مناهج الغرب في التربية والسلوك:

في نظر lettre ، أن التربية هي العمل الذي نقوم به لتنشئة طفل أو شاب، و أنها مجموعة من العادات الفكرية أو اليدوية التي تكتسب، ومجموعة من الصفات الخلقية التي تنمو⁽¹⁴⁾.

وهي عند هربارت ، موضوع علم يجعل غايته ((تكوين الفرد من أجل ذاته ، بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة))، وفي نظر وليم جيمس ، مادة فن ((يكتسب في الصف عن طريق ضرب من الحدس وعن طريق الملاحظة، والتعاطفية للوقائع و لمعطيات الواقع)) ، أما دوركهام فيرى فيها تكوين الأفراد تكوينا اجتماعيا ، و أما جيمس ميل الفيلسوف النفعي يرى أن موضوع التربية ((أن نجعل الفرد أداة سعادة لنفسه ولغيره))، ويضع ستوارت ميل فيها جميع المؤثرات التي يعايشها الإنسان سوءا أتت من الأشياء أو من المجتمع ، أو من الناس⁽¹⁵⁾ ، وجميع هذه التعريفات تقصد النفس أو الروح . ولكن تبقى حبيسة التنظير ، قد تصدق على مجتمعات مرتبطة بواقع لا يتعدى الوجود أو من ثقافتها تعنى بالجسد أكثر من الروح ، وبالرغم من هذا فإن هناك من علماء الغرب وخاصة المربون منهم ، وأصحاب القيم اسندوا عملية التربية إلى الروح ، حيث يرون أن التربية عمل تقوم به روح في روح . إنها نداء توجهه الروح التي وصلت إلى الأفاق العليا من الوجود إلى الروح التي تتطلع إلى اللحاق بها تطلعا غامضا بعض الشيء ، ولقد جهد أصحاب نظريات القيم من أمثال إدوارد شبرانغر ، و المربون من أمثال كرشنشتاينر ، وأصحاب مذهب الظاهريات من أمثال ماكس شيلر في تحليل هذه الصلة بين الأرواح أو إذا شئنا هذه الصلة بين الآن و الأنت التي تكون التربية حالة خاصة منها⁽¹⁶⁾ أما تبرانغر فيصف في كتابه المسمى ((أشكال الحياة)) الأوضاع الستة ، أو الأفعال الأساسية الستة للروح التي هي الأشكال النموذجية⁽¹⁷⁾ الستة الكبرى للنظر في الأشياء : الشكل النظري الذي يرى العالم مجرد موضوع للمعرفة ، والشكل الجمالي الذي لا يبحث عن الحقيقة الموضوعية أو العلمية ، وإنما يبحث عن المعنى الذاتي للواقع . أما الشكل الاقتصادي فهو الذي يعيش للأشياء كلها و يحكم عليها من خلال نفعها. والشكل المسيطر أو السياسي الذي يتضمن الرغبة في ممارسة السلطة⁽¹⁸⁾ ، والذي يرى في معرفة الناس لصنعهم من أجل غايته السياسية الشخصية ، والشكل الديني، الذي يستهدف المعنى الكلي والكامل للحياة . وأخيرا الشكل الاجتماعي الذي قوامه محبة الآخر منظورا إليه كخالق أو كحامل ممكن للقيم. أما المربون ، فينقسمون إلى نموذجين مختلفين ، النموذج الجمالي (نموذج المربي المأخوذ ((بالمحبة)) الذي تجذبه رشاقة الشبيبة وجمالها ، والمربي من النموذج الاجتماعي يحب كل طفل

مهما يكن قبيحا ضعيفا، لأنه يحمل في نفسه إمكانية الشعور بالقيم وخلقها ولأنه في حاجة إلى أن نمده يد العون

فالنموذج الاجتماعي تجد في نفسه نوعين، النوع الغيري، الذي يوجه نشاطه نحو أشخاص يعينهم. والنوع الاجتماعي الحق الذي تسيطر لديه إرادة إنقاذ المجتمع الذي يكون جزءاً منه، بل إنقاذ الإنسانية جمعاء وتخليصها من الفساد ، و خاصة ظاهرة الخلاف بين أفراد المجتمع واستفحالها بين أبنائه في مناهج التفكير و أسلوب الحياة وفلسفتها بل حتى في بعض الأصول و القيم الجوهرية وهذا الخلاف متعدد ومتنوع الأطراف⁽¹⁹⁾.

وقد نجد في بعض المذاهب السياسية تصوف ، فأصحاب((هتلر)) هم اليوم صوفية ، والصادقون من أنصار((موسيليني)) صوفية ، و أولئك وهؤلاء لهم أشباه في التاريخ الإسلامي ، فالخوارج في حقيقة الأمر سياسيون ولكنهم في صدقهم⁽²⁰⁾ إلى أبعد غايات التصوف، ولهم أخبار هي نهاية النهايات في الروحانية كما يقول، زكي مبارك⁽²¹⁾ ، وكذلك نقول فيمن تشيعوا لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقدموه على سائر الخلفاء ، فهم في حقيقة الأمر سياسيون ، و ما حاربهم الأمويون ، و العباسيون إلا خوفاً من سيطرتهم على المنافع الدنيوية ، وصدق أولئك وهؤلاء في الثبات على مبادئهم السياسية ، وهو نضجة من التصوف ، وذلك الصدق هو الذي سجل أخبارهم على جبين الزمن⁽²²⁾ . إن التربية الصوفية والسلوك الصوفي هو السبيل إلى تهذيب النفس كما قيل غير أننا لا نحتاج معه إلى تأسيس نظرية في الأخلاق، ولا نحتاج إلى رأس مال ثقافي ننفق فيه بقدر. فالتصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، أو تصفية البواطن من الرذائل. فأولاه علم ، و وسطه عمل و آخره موهبة⁽²³⁾ ، و لكل فريق طريق ، فالعامي، تصوف حوته كتب المحاسبي، و من هنا نحوه ، و للفقيه تصوف رحاد ابن الحاج في مدخله ، وللمحدث تصوف حام حوله ابن عربي في سراجيه ، و للعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه. وللمتريخ تصوف ، نبه عليه القشيري في رسالته وللناسك تصوف حواد القوت والإحياء ، ولحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه ، وللمنطقي تصوف هنا إليه ابن السبعين في تأليفه، ولطبائعي تصوف جاء به البوني في أسرارهِ ولأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه فليعتبر كل بأصله من محله⁽²⁴⁾ . وفي اختلاف المسالك راحة للمسالك ، ومناهج الصوفية تختلف في التربية لأن التصوف وليد لعوامل اجتماعية وسياسية ودينية و ثقافية ، ساعدت على ظهوره فكان له سلطان كبير على النفوس ، و لكن الروح الصوفية قد وجدت مع الإسلام منذ اليوم الأول وفي حياة الأئمة الصحابة⁽²⁵⁾ والتابعين تابعيهم ، وها هو عبد الرحمن السلمي رحمه الله يكتب في التربية والسلوك بل ويقصد النفس مباشرة في رسالة في التربية الروحية⁽²⁶⁾ وهو عمل لم يسبقه إليه سوي المحاسبي في مؤلفه ((الرعاية لحقوق الله)) ، وقد اتخذ من الأوضاع الاجتماعية

والسياسية في تلك الحقبة من التاريخ مُنطلقاً لإيجاد العلاج الحقيقي والتي شهدت انتشار الفساد العارم تمثل في حروب السلاطين والأمراء وانعدام الأمن والاستقرار ، وكثرة الاضطرابات التي أشعلت الفتن ، وبعد أن شخّص الداء وعرف العلة ، وليس كما يراه الغرب كمّاً ونظريات كما مر معنا حول مناهج الغرب في التربية والسلوك ، بل سلوكاً وممارسةً ، ولا تخلو رسالته من تشخيص الداء ووصف الدواء فحسب ولكن أيضاً يتفق منهاج ابن عربي في التربية الصوفية والسلوك ن فهو يستخلص العلاج من القرآن والسنة النبوية ، وبالرغم من وصفه الدقيق للعلاج وكأنه يعيش هذا العصر بل وكأنه يعنيه لما يحدث فيه من فتن . ولو أننا قمنا بنشر هذه الرسالة وعملنا على بثها في أوساط الخاص والعام وتنبهنا لها كما تنبه السلمي إلى الحالة المرضية التي أصابت المجتمع الإسلامي منذ أن دب الخلاف بين المسلمين لأمسينا في وضع يسوده الأمن والرخاء ومطية لحاضر يحمل السلام والاستقرار ، فمستقبل هذه الأمة رهن بعودها إلى منابع الثقافة الإسلامية وفهم غاية التصوف وأدوات الصوفية⁽²⁷⁾ في تربية الناس ، وجعلهم قادة في الأخلاق وهداة للناس ودعاة سلام ، فعبد الرحمن السلمي يشدّ رسالته بأقوال الصوفية ، وكأنه يشخّص الأدواء ويصف الأدواء من خلال نصائح المتصوفة ، ولا يمكن ألا يتضمن هذا البحث ما ضمنه في رسالته وهو ينقل قول حكيم لآخر حيث أورد هذه النصيحة وكفى بها لو تضمنتها الرسالة دون سواه إذ يقول : ((كتب حكيم إلى حكيم : أما بعد فإن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر إلى العقوبة نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن لم يحلّم ندم ، ومن صبر غنم ، ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن فهم علم ، ومن استعجل أخطأ ، ومن تأنى أصاب ، وزارع البر يحصد السرور ، والتقوى نجا ، والطاعة ملك ، و الجاهل الصادق متعوب ، فإذا جهلت فأسأل الناس ، وإذا غضبت فأمسك ، ومن أسلف المعروف كان ربحه المحمّدة⁽²⁸⁾ ومن كفأ بلا شكر فقد أحياء الحق ، ومن أقرضك فاقرضه الصنيعة ، ومن بدأك بالخير فقد شغلك بشكره ، ومن جفاك فمكافأته الصفح والإعراض ، ودونك أن تتدبر ما وجهته ، إليك واجعله مثلاً بين عينيك والسلام⁽²⁹⁾ ، فهذه نصائح ينقلها إلينا السلمي تربية وتوجيها وإرشادا منهاجاً إسلامياً صوفياً سلوكياً خالصاً . وهي كثيرة من أقوال الحكماء من الصوفية وأهل التربية والسلوك ، فهذه قراءة في مناهج الصوفية وغيرهم نخلص منها إلى الطرق القويمة التي تجمع الروح والمادة دون طغيان أحدهما على الآخر في قالب تربوي سلوكي صوفي ، الغاية منه غرس في أنفس المجتمع من يؤمنون بالقيم الروحية ، والوطنية ، ويحافظون على التقاليد ، ويتمسكون بالمبادئ التي لا تقبل الجدل في مقابل طائفة اتخذت من مناهج الغرب في التربية التي تنشد أحياناً المادة وتميل أحياناً أخرى إلى الروح صرفاً ، ففي كلتا الحالتين تجعل من هذه الطائفة متنكرة لذواتها ، ولقوميتها ، ودينها ، باسم التقدمية ، حيث تجعلهم في حل من القيود الأخلاقية والاجتماعية باسم الحرية فأفسدوا ما أصلح الدين باسم التطور ، وشدّوا وغالوا باسم الأصالة

فهدموا ما أقامه الدين من دعائم تحدد المسافات بين البشر كيفما كانت جنسياتهم ولا نجد ذلك التصديق والتفصيل والتربية إلا عند أهل التصوف .

الإحالات و الهوامش

- 1- العنوان الأصلي هو : رسالة روح القدس في مناصحة النفس
- 2- هو محمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي المعروف بالشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي توفي بدمشق ليلة الجمعة ، الثامن والعشرون من شهر ربيع الآخرة سنة 638هـ ، ودفن بسفح قاسيون ، وقد أرخ الكلشني محمد بن سعد بقوله :
إِنَّمَا الْحَاتِمِي فِي الْكَوْنِ فَرْدٌ ♦ ♦ هُوَ غَوْثٌ وَسَيِّدٌ وَإِمَامٌ
كَمْ عُلُومٌ أَتَى بِهَا مِنْ غُيُوبٍ ♦ ♦ مِنْ بِحَارِ التَّوْحِيدِ بِاسْتِثْمَامِ
إِنْ سَأَلْتُمْ مَتَى تُوفِّيَ حَمِيداً ♦ ♦ قُلْتُ أَرَحْتُ مَاتَ قُطْبٌ هَمَامِ
ابن عربي (محي الدين) ، مختصر رسالة القدس في محاسبة النفس اختصار وتقديم وتعليق أحمد الرفاعي شريف ، دار الهدى ، عين مليلة الجزائر ، ص 25 ، ابن عربي محيي الدين ، الفتوحات المكية ، دارصادر ، المجلد الرابع ، ص 561 ، دط
- 3 - هاملتون جيب ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، دط ، ص 275.
- 4- يعتقد الكثير أن تصوف ابن عربي ، تصوف فلسفي ، من خلال كتبه ، وخاصة فصوص الحكم غير أن الحكمة تقتضي الحجاج بالتأويل ، من يقرأ لابن عربي يجده يفرق في كتاباته بين التصوف يستثمر فيه التجربة الدينية كرسالته هذه والتصوف تأويلا يقتضيه الحال ، وعليه لابد لنا من التمييز بين التصوف ذوقا ، أو تجربة ، وبين الوصف أدبا وفكرا ، يترجم فيهما الصوفي معاناته ، وما يكابده في طريقه إلى الله ، خياطة نهاد ، دراسة في التجربة الصوفية ، دار المعرفة ، نشر - توزيع - طباعة - ترجمة ، دمشق ن 1414/1994م ، ط 1 ، ص 29.
- 5- أبو القاسم القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق وإعداد ، معروف زريق ، علي عبد الحميد أبو الخير ، دار الخير ، 1416هـ / 1995م ، ص 280
6. هاملتون جيب ، المرجع السابق ، ص 277.
- 7- في معنى التصوف ، و أحوال الصوفية ، و أدبهم مع الحق و الخلق قال الأئمة : أول التصوف علم ، و أوسطه عمل ، و آخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد ، و العمل يعين على المطلوب ، و الموهبة تبلغ غاية الأمل . المكي أبو طالب ، سراج القلوب وعلاج الذنوب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، و التوزيع ، ج 1 ، ص 267.
- 8- إن أوجست كونت لم يكن يقصد بالتجربة تلك التي تتم في المخبر ، التي تجرى على علوم ، كالطبيعيات والكيمياء والحياة ، وإنما كان يرمي من وراء ذلك إلى تلك التجربة التي تقوم على المقارنة بين حالتين مختلفتين في ظروف معينة ، ولكنهما متشابهتان في الطبيعة والأصل . خضير إدريس ، التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983م ، ص 69.
- 9- ابن القيسراني (المقدسي) ، صفوة التصوف ، تحقيق عادة مقدم عدرة ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1416هـ / 1995م ، ص 495
- 10- دور علماء الدين هو العمل على إطفاء نار الفتنة لا تأجيجها كما هو الحال في الثورات العربية التي وضعوا فيها خطبهم وأقلامه وألسنتهم فزادوا لهيبا بدل إخمادها ، وسئل الحسن البصري رحمه الله عن الفتنة الكبرى فقال : فتنة لم أغمس فيها سيوفي فكيف أغمس فيها لساني . فشتان بين قول هذا الصوفي ، وما قاله علماء السوء وهؤلاء من قصدهم ابن عربي .
- 11 - من يتزي بزى الصوفية وهو ليس منهم في شيء .
- 12 - ابن عربي رسالة روح القدس في محاسبة النفس المرجع السابق ص .
- هو أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري (توفي 245هـ / 859م) : من أقواله : مدار الكلام على أربع : حب الجليل ، وبغض القلي
- 13- التنزيل وخوف من التحويل " وهو قريب من قول علي بن أبي طالب عندما سئل عن التقوى فأجاب : الرضى بالقليل والخوف من

- الجليل والاستعداد ليوم الرحيل " القشيري أبو القاسم ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق و إعداد ، معروف زريق ، وعلي عبد الحميد أبو الخير، دار الخير لط. ن. ش. ت. ط2 1416 هـ / 1995م ، ص 433.
- 14 - رونه (أوبير) ، التربية العامة ، ترجمة عبد الله عبد الدائم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، كانون الثاني ، يناير 1967. ص2
- 15- رونه أوبير ، نفس المرجع ، ص 23 .
- 16- المرجع نفسه ، ص 270
- 17- النموذجية جمعها النماذج : مفردتها نموذج و أنموذج ، وهي لفظة فارسية تعني مثال الشيء .
- 18- من عيوب النفس طلب الرئاسة بالعلم و الافتخار به ، المباهاة به على أبناء جنسه ، السلمي عبد الرحمن ، عيوب النفس ومداواتها ، تحقيق وتعليق أحمد الرفاعي شريف ، دار الهدى ، للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2006 ، ص 97
- 19- رسالة المسجد العدد الثاني ، صفر 1426 هـ / مارس - أبريل 2005م ، التهامي نقرة ، العقيدة وتقويم السلوك ، ص 27
- 20 - العجاج (محمد الخطيب) ، أصول الحديث ، علومه ومصطلحه ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1419 هـ / 1998م ، ص 278.
- 21- هو أديب مصري ولد بقرية سنسريس بمصر ، في صيف 1892م ، ويقول عن نفسه :
- وَفِيَّ أَبِ مِلَادِي تَعَلَّتْ صَبَابَةٌ ❖ ❖ لَهَا أَبِ فِي دُنْيَا الصَّبَابَةِ
وَلِدْتُ مَعَ الْأَعْنَابِ وَالنَّسِيلِ ثَائِرِ ❖ ❖ يَجُورُ بِأَرْجَاءِ الْبِلَادِ فَيَعْدِلُ
- فاصل خلف ، زكي مبارك ، بين رياض الأدب والفن ، عرض ونقد وتحليل ، مكتبة الآداب ومطبعتها دط ، ص 26
- 22- مبارك (زكي)، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت، ج 1، ص 24
- 23 - الشيخ عبد الله أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تقديم و تحقيق د. عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء ص 4
- 24- الشيخ زروق الفاسي قواعد التصوف تقديم وتحقيق ، عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط 2007، ص 3، 51
- 25 - ابن القيسراني (المقدسي) ، المرجع السابق ، ص 56¹
- 26- المؤلف الثاني في مناهج الصوفية في التربية الصوفية والسلوك للإمام أبي يزيد عبد الرحمن السلمي وهي رسالة في التربية الروحية بعنوان ((عيوب النفس ومداواتها)).
- 27 - هذا عنوان كتاب ((غاية التصوف وأدوات المتصوف))، لمؤلفه ، ضياء مجيد الموسوي ، يعرض فيه الغاية المأمولة للمتصوف ، كما يبين بشرح مستفيض أدوات المتصوف لبلوغ هذه الغاية ن وكلها تحوم حول رياضة النفس أي تربيتها لتحصل على السعادة ، مجيد الموسوي (ضياء) ، غاية التصوف وأدوات المتصوف ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، 1432 هـ / 2011م
- 28- قيل : الحمد على الأنفاس والشكر على نعم الحواس، وقيل : الحمد ابتداء منه والشكر افتداء منك ، القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، المرجع السابق ، ص 187
- 29 - السلمي (أبو زيد عبد الرحمن) ، عيوب النفس ومداواتها ، تحقيق وتعليق ، أحمد الرفاعي شريف ، دار الهدى، عين مليلة ، الجزائر ، 2006، ص 149